

جلدوم التراث العربى .. للفرسان

عبد اللطيف أرفاؤوط

العبقريّة موهبة لا تخفى على الباحثين ، مهما توالى عليها المحن وعاكستها الظروف السيئة ، أنها قطعة ماس تفرزها الطبيعة من تراب الأرض ، فتظل تتألق عبر العصور ، وفي كل مكان ، شاهدة ببريقها على ما خصها الله من سمات ومحاسن .

ويمكننا القول أن جلال الدين السيوطي هو أحد العباقرة الذين يزهى بهم تاريخنا العربي الاسلامي ، أصالة وتجديداً وسعة أفق وغزارة معرفة . وما زال الدارسون له يعارون كيف تأتّى لهذا العالم الجليل أن يترك لنا مجموعة من المؤلفات يبلغ عددها (٥٨٣) مؤلفاً ، بحسب تقدير صاحب كتاب « هداية العارفين » ، أو (٥٠٤) مؤلفاً ، وفق ما أورده حاجي خليفة في « كشف الظنون » .

ان العمر ليقصر عن بلوغ هذه الغاية الا اذا أمضى الانسان كل ثانية من حياته تحصيلاً وتأليفاً ، وخصّه الله دون البشر بقدره الاستيعاب ، وعمق الفهم ، ومعجزة الابداع ، والتفرغ الكامل للعلم .

لقد ذكر السيوطي نسبه في سيرة حياته التي أوردها في كتابه « حسن المحاضرة » انه يدعى عبدالرحمن بن الكمال ، ويلقب بجلال الدين ، ويكنى بأبي الفضل ، وينسب الى مدينة « أسيوط » في مصر ، التي ولد فيها والده ، وتولى القضاء فيها قبل قدومه الى القاهرة . وكلمة أسيوط تعريب لاسمها القبطي « سيوت » واليها ينتسب عدد من العلماء النابهين في تاريخ مصر ، منهم الفيلسوف أفلاطين .

ولد جلال الدين السيوطي سنة ٨٤٩ هـ في أسرة علم ودين ، وكان والده يتقن علوماً كثيرة ، برع في الخطابة والانشاء والفقه ، وتلمذ عليه الخليفة يعقوب بن المتوكل على الله ، كما نال حظوة لدى الخليفة المستكفي .

وقد تحدث السيوطي عن أخلاق والده فأشار الى أنه كان على جانب كبير من الورع ، والتحري في الأحكام ، وعزة النفس والصيانة . يغلب عليه حب الانفراد ، مواظباً على قراءة القرآن .

توفي والد السيوطي ولجلال الدين من العمر ست سنوات، وكان والده قد جهد في تحفيظه القرآن طفلاً . ثم تولّى أمره بعد وفاة والده الشيخ كمال الدين ابن الهمام ، وكان صاحب علم وفضل ، غير أن رعايته للطفل لم تدم ، لأنه مات بعد خمس سنوات من وفاة الأب ، ولجلال الدين آنذاك من العمر إحدى عشرة سنة . غير أن الشيخ كمالاً استطاع أن يفرس في نفس تلميذه حب العلم والتحصيل .

تلقّى السيوطي علوم عصره المختلفة على عدد من الشيوخ أربوا على مائة وخمسين شيخاً ، منهم جلال الدين المحلي ، الفقيه المتكلم النحوي ، والبلقيني قاضي القضاة ، والفقيه المفسر المحدث ، وسيف الدين الحنفي ، والكافيجي ، والعز الحنبلي ، وشمس الدين المرباني ، وسواهم . . . وكان له شيوخ من النساء ، اللاتي بلغن الغاية في العلم والتبريز فيه ، منهن : آسية بنت جابر الله المحدث ، وكمالية بنت محمد الهاشمية المكية ، وأم هانئ بنت أبي الحسن الهروي الكاتبة المحدث ، وأم الفضل هاجر بنت محمد المقدسي المحدث وغيرهن ، مما يدل على المكانة العلمية التي بلغتها المرأة العربية في ذلك العصر .

نال السيوطي من شيوخه اجازات عدة في تدريس العلوم المختلفة ، الا أنه لم ينقطع عن التحصيل طوال عمره ، فكان يعلم ويتعلم ، وقد تتلمذ عليه عشرات من الأعلام ، منهم الشيخ عبد القادر بن محمد الشاذلي ، ومحمد بن عبد الرحمن العلقمي ، وعلى بن محمد بن يخلف ، وشمس الدين محمد الداودي .

★ ★ ★

كانت رحلات العلماء هي السبيل الى تحصيل المعرفة ، فجاب السيوطي في حياته جانباً كبيراً من العالم الاسلامي ، طالباً العلم ، فرحل داخل الديار المصرية وسافر

الى الشام واليمن والهند والمغرب وتكرور والحجاز وكان عصره عصر سعى العلماء فيه لجمع وحفظ التراث العربي بعد أن غزا المغول بغداد وأحرقوا وأغرقوا ما وجدوه في خزائن الكتب ، فظهرت الموسوعات في كل علم وفن ، وقابل ذلك نهضة فكرية في مصر زمن المماليك ، وبرز في هذا القرن أعلام منهم ابن حجر العسقلاني مؤلف « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » ، والسخاوي مؤلف « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » ، فاكيتسب السيوطي من هؤلاء نزعتهم الموسوعية ، ونحا نحوهم في التأليف ، الذي يقوم على جمع العلم ، أو اختصاره في رسائل مبسطة تقربه الى أذهان الناس .

توزعت حياة السيوطي في مستهل عمره بين التدريس والمناصب ، فدرس الفقه في الجامع الشيعوني ، والحديث في الخانقاه الشيعونية ، وأسندت اليه مشيخة الخانقاه البيبرسية ، ثم جعله الخليفة المستكفي كبيراً للقضاة ، يولّي منهم مَنْ يشاء ، ويعزل مَنْ يشاء ، مما أثار الحسد في نفوسهم .

فلما تولّى السلطنة في مصر (طومان باي) ، ولم تكن علاقة السيوطي به حسنة ، تشجع صوفية الخانقاه التي كان يديرها السيوطي ، فثاروا عليه ، لأنه أراد أن يصلح أمور هذه المؤسسة ، بعد أن فسدت صوفيتهما ، فامتلكت الأموال والعبيد ، واستغلت مخصصات الخانقاه ، التي كانت تصرف على الفقراء من طلاب العلم .

ولم يهادن السيوطي هؤلاء الفاسدين ، فشدّد عليهم الخناق ، غير أن بعض حسّاده من القضاة آزروهم على ما يبدو ، فشغب عليه الطلاب ، وضربوه ، وألقوه بشيابه في الماء ، وذلك في سنة ٩٠٦ هـ . فهجر التدريس والمناصب ، واعتزل الناس في بيته ، منقطعاً للعبادة والتأليف حتى وفاته . وقد ألف في ذلك كتاباً دعاه : « التنفيس في ترك الفتيا والتدريس » .

لم تكن الواقعة بعد ذاتها سبباً لهذا التحول في حياته لولا شخصيته وطبعه ، فقد كان يضيق بالمناصب ويكره تقاليدها . وقد روي عنه أنه توجه الى السلطان (قايتباي) مرة ، وعلى رأسه طيلسان ، مما لا تسمح به تقاليد المثل بين يدي السلاطين ، بالاضافة الى ميله للتفرد والعزلة ، ونزاهة ضميره ، في

عصر شاع فيه الفساد، وامتد الى العلماء أنفُسهم ، الذين كان همهم الطمع في أمور الدنيا ، يسخّرون علمها لنيل مكاسبها .

كانت للسيوطي مواقف عنيفة ، وصراعات مع خصومه من العلماء ، من ذلك دفاعه عن ابن الفارض ، فاعتصب ضده من العلماء ، منهم برهان الدين البقاعي ، وقاضي القضاة محب الدين بن الشحنة ، فنادوا بتكفيره ، بسبب أبيات نظمها ابن الفارض ، وردت في تأنيته الكبرى ، فألف السيوطي كتاباً يرد فيه على المعارضين سمّاه : «قمع المعارض في الرد عن ابن الفارض» . كما دافع عن ابن عربي المتصوف الشهير ، في كتاب آخر عنوانه «تنبيه الغبي الى تبرئة ابن عربي» . وكتاباً ثالثاً في نصرة الغزالي ، عنوانه «درج المعالي في نصرة الغزالي على المنكر المتغالي» .

لقد أثارت المنزلة العالية التي نالها السيوطي في حياته ، وعلمه الواسع ، ومصنفاته في الرد على خصومه غضب هؤلاء الخصوم ، فحملوا عليه وشنعوا في اتهامه . ومنهم السخاوي المؤرخ ، وابن الكركي ، وابن العليف وأحمد بن محمد العسقلاني .

وكان السيوطي يرد عليهم برسائل يؤلفها مثل كتاب : «الكاوي على تاريخ السخاوي» ، مما أثر في نفسه وحياته ، وكان يتمثل بقول الشاعر :

ألم تعلم بأني صير في	أحكّ الأصدقاء على محكي
فمنهم بهنّرج لا خير فيه	ومنهم من أجوزّه بشكي
ومنهم خالص الذهب المصفي	بتزكيتي ومثلي مَن يزكي

وقد ندم كثير من هؤلاء العلماء على مخاصمته ، بعد أن طبقت شهرة السيوطي الآفاق ، فاعتذروا له ، وأسفوا على ما رموه به ، فصّح عنهم بحلمه الكبير .

* * *

□ وفاته :

ذكر ابن إياس أن وفاة السيوطي كانت يوم الخميس ، التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ ، وقيل يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى ، وله من

العمر احدى وستون سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوماً ، وقد رثاه الشيخ عبد
الباسط الحنفي بقصيدة قال فيها :

مات جلال الدين غوث الورى مجتهد العصر إمام الوجود
وحافظ السنة مهدي الهدى ومرشد الضال لنفع يعود
فيا عيون انهملي بعده ويا قلوب انفطري بالوقود

ومشهده قائم الى اليوم شرقي باب القرافة المواجهة لمسجد السيدة عائشة
بالقاهرة .

عاصر جلال الدين السيوطي من السلاطين الماليك الجراكسة اثني عشر
سلطاناً ، فقد ولد في عصر الظاهر جقمق ، ومات في عهد السلطان قانصوه الغوري .

★ ★ ★

□ مؤلفاته :

تناولت مؤلفات السيوطي عدة علوم ، برع في بعضها ، وبعضها - كما
يعترف - لم يبلغ الغاية فيها . فقد برع في الفقه والجدل والتصريف ، وكان دونها
في الانشاء والترسل والفرائض ، ودونها في القراءات التي لم يأخذها عن شيخ ،
ودونها في الطب . أما علم الحساب ، فكان أعسر العلوم بالنسبة له . ولتأليف
السيوطي خصائص جعلت كتبه تروج في عصره وتطغى على ما أُلّف في بابها .
وهذه الخصائص هي التي حدت بالمعاصرين أيضاً أن يطبعوا عدداً وافراً . ومن
هذه الخصائص :

١ - الاجتهاد والاستقصاء :

فقد أوتي قدرة على تتبع العلم واستيعابه وتمثله والاحاطة به من مصادره
المختلفة . ويقول عن نفسه في ترجمته الذاتية :

« وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى ، أقول ذلك تحدثاً
بنعمة الله لا فخراً ، وأي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها في الفخر ؟ » وقد
أزف الرحيل ، وبدأ المشيب ، وذهب أطيب العمر ، ولو شئت أن أكتب في كل

مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها : والموازنة بين اختلاف المذاهب لقدردت على ذلك .» .

وفي هذه الاطاحة والشمول نزعة موسوعية وتتبع مضمّن للمراجع لا يقدر عليه الا العالم الصابر المتجلّد . على أن كدّه لم يكن منصباً على النقل فحسب ، بل كان مجتهداً يبذل جهده في طلب المقصود .

وللسيوطي كتاب عنوانه : « التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل مائة » ذكر فيه أسماء المجتهدين المجددين حتى عصره .

لقد ادعى السيوطي الاجتهاد ، وجرّت عليه دعوته كثيراً من المشكلات ، فقد أخذ عليه أنه لا يجيد علم المنطق ، والمجتهد يجب أن يكون ملماً بالمنطق . ولكن السيوطي دافع عن نفسه وأثبت إلمامه بهذا العلم ، وان كان قد ذهب الى تحريم الاشتغال به ، ولخص كتاب ابن تيمية الذي ينقض قواعد هذا العلم .

كان السيوطي أهلاً للاجتهاد ، اجتمعت فيه شروطه ، والتي لخصها في منظومته عن المجتهدين المجددين . فقال :

والشرط في ذلك أن تمضي المئة	وهو على حياته بين الفئة
ينشأ بالعلم الى مقامه	وينتصر السنة في كلامه
وأن يكون جامعاً لكل فن	وأن يعمّ علمه أهل الزمن
وأن يكون في حديث قد روي	من آل بيت المصطفى وهو قوي
وكونه فرداً وهو المشهور	قد نطق الحديث والجمهور

وذكر السيوطي في منظومته أنه يرجو أن يكون هو مجدد المئة التاسعة الهجرية ، غير أن الشيخ عبد المتعال الصعيدي في كتابه « المجددون في الاسلام » يستبعد أن يكون السيوطي مجدد القرن التاسع ، لعدم اشتغاله بالفلسفة والمنطق ، ولأن بضاعته في العلم بضاعة جمع واختصار ، فلم يأت بجديد يذكر .

والحق أن تجديد السيوطي يظهر أكثر في توجيهه تأليفه لتكون ملبية لحاجات الناس ، نافعة لهم ، ولذلك راعى فيها التنوع والشمول والتركيز ، فمنها ما هو عظيم القيمة ، ككتابة (الاتقان في علوم القرآن » و « المزهري في علوم اللغة » وهو فريد في بابه .

ومن مميزات أسلوبه في التأليف السلاسة وجمال العبارة وحسن العرض ، والأمانة في النقل ، فهو يردّ الأفكار والآراء الى مصدرها ، والخبر الى اسناده .

٢ - ومن خصائص تأليفه تزويد القارئ بفوائد قد تفوت على كثير من الناس ، واهتمامه بالطرائف والأمور الدقيقة ، ومنهجه يقوم على احصاء الظواهر المعرفية ، كاستقصائه المفردات الغريبة في القرآن الكريم ، واستدراكه منها ما لم يرد قبله ، واحصائه المفردات القرآنية التي جاءت بغير لغة الحجاز . ومنها على سبيل المثال: « سامدون » ومعناها « مغنون » ، بلغة أهل اليمن ، « ولا وزر » ومعناها « لا حيل » ، بلغة أهل اليمن . وذلك كله في كتابه « غريب القرآن » .

ان استعراض مؤلفات السيوطي كلها كالخوض في بحر واسع ، ذلك أنه لم يترك فناً الا كتب فيه ، ولا علماً من علوم عصره الا طرقة ، وسأكتفي بهذه اللمامة الوجيزة بالكلام عن بعض مؤلفاته :

أ - في علوم الدين :

١ - الاتقان في علوم القرآن : حققه محمد أبو الفضل ابراهيم ، وهو كما يقول الأستاذ عبد الحفيظ فرغلي : الحلقة الذهبية في سلسلة الدراسات القرآنية ، أحسنها تأليفاً وتصنيفاً ، وأكثرها استيعاباً وشمولاً ، وقد جعله مقدمة لكتابه في التفسير المسمى « مجمع البحرين ومطلع البدرين » وطبع الكتاب مرات عدة في جهات متعددة . جمع المؤلف مادته من أكثر من مائتي كتاب من الكتب الجامعة ، وتحدث فيه عن القرآن الكريم منبع العلوم ، ثم تناول ثمانين موضوعاً حوله ، وهي تكاد تكون ضعف موضوعات كتاب « البرهان » للزركشي الذي سبقه الى التأليف في هذا الباب ، كما خصّ الجزء الرابع منه بالحديث عن إعجاز القرآن .

٢ - جمع الجوامع أو الجامع الكبير : جمع فيه كل ما وصلت اليه يده من أحاديث الرسول ﷺ وسنته ، وجعله في قسمين : الأول تضمن الأقوال مرتبة على حروف المعجم ، والثاني الأفعال مرتبة على الأسانيد . ونظراً لضخامة هذا الجامع الكبير ، فقد قام السيوطي باختصاره في كتاب سماه « الجامع الصغير » واختار فيه أصح الأحاديث وأكثرها إيجازاً .

٣- الاكليل في استنباط التنزيل : طبع في بيروت عام ١٩٨١ وحققه عبد
القادر الكاتب • وتحدث فيه عن استنباطات العلوم من القرآن الكريم •

٤- الدر المنثور في التفسير بالمأثور : وهو مختصر لكتاب مطوّل جمع فيه
أكثر من عشرة آلاف حديث من تفاسير النبي (ﷺ) والصحابة للقرآن الكريم •

٥- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة : بيّن فيه ما أضافه الوضع
الى أحاديث النبي (ﷺ) وقد طبع مرات عدة •

٦- مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة : دافع فيه عن سنة النبي (ﷺ)
والطعن فيها ، ورأى فيه أن الصوفية المحققين محافظون على السنة ، وأورد
أقوالاً لهم في ذلك • منها قول الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق الا على
من اقتفى أثر رسول الله (ﷺ) •

٧- تفسير الجلالين •

٨- الأشباه والنظائر « في الفقه » •

ب - في التاريخ والتراجم :

١- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة : وهو كتاب ذكر فيه السيوطي
الآيات التي وردت في القرآن الكريم ، والأحاديث الشريفة ، وفيها تنويه بفضل
هذا البلد ، وما نزل به من الأنبياء ، وممن كان فيه من الصديقين والحكماء ،
ثم ذكر عجائب مصر القديمة ، والفتح العربي لها ، والصحابة الذين دخلوها ،
وأمرائها وملوكها وسلاطينها ، وآثارها الاسلامية ولطائفها ، وأورد ما قاله
الشعراء في وصف محاسنها • فكان كتابه أشبه بدائرة معارف •

٥- طبقات المفسرين •

٢- تاريخ الصحابة •

٦- طبقات الأصوليين •

٣- تاريخ الخلفاء •

٧- طبقات النحويين •

٤- طبقات الحفاظ •

ج - في البلاغة :

١ - عقود الجمان في علم المعاني والبيان : (جمع الأبواب التي تشمل عليها هذه العلوم) .

٢ - الافصاح . ٣ - شرح تلخيص المفتاح .

٤ - فتح الجليل للعبد الذليل : يتضمن مائة وعشرين نوعاً من البديع وجدها السيوطي في آية واحدة هي قوله تعالى : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور » (سورة البقرة ٢٥٧) .

د - في الأدب المنثور :

١ - ورد الكلم وغرر الحكم : رسالة ضمنها نظراته وحكمه في الحياة .

٢ - رشف الزلال عن السحر الحلال : المشهور بمقامات النساء وهو يتضمن عشرين مقامة ، تدور بين عشرين عالماً تزوج كل منهم ووصف أول ليلة قضاها مع زوجته مستخدماً توريثات لطيفة . ومن هؤلاء العلماء المقرئ والمفسر والمحدث والفقيه والأصولي والجولي واللغوي . مظهراً براعته اللغوية ناقداً عصره ومجتمعه .

٣ - الوسائل الى معرفة الأوائل : أخذه من كتاب العسكري ، وزاد فيه وأحسن ترتيبه ، وموضوعه يتناول الأوائل من كل باب ، كقولهم أول من خطب فلان ، وأول من لبس كذا ، . . . وهو كتاب مخطوط .

هـ - في الطب :

١ - المنهج السوي والمنهل الردي في الطب النبوي : جمع فيه الأحاديث الخاصة بالطب .

و - في الشعر :

له مقطوعات من الشعر متفرقة ، وقصائد في الرثاء ومدح شيوخه ، وله بديعية جميلة تسمى : نظم البديع في خير شفيح .

مطلعها :

من العقيق ومن تذكّار ذي سلم براعة العين في استهلالها بدم
ومختاراته الشعرية تشهد بحسن ذوقه الأدبي .

ز - في اللغة وعلومها :

١ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، وهو في جزأين يبحث أولهما في
ألفاظ اللغة وأصلها وصحیحها ، ومتواترها ومرسلها ، وطرق الأخذ ، ومعرفة
المصنوع والفصيح والضعيف والمنكر . . . والمطرّد والشاذ ، ويبحث الجزء الثاني
في أوزان الكلام ، وأبنية الأفعال وضوابطها ، والنادر من الأبنية .
ويعدّ الكتاب مرجعاً في الدراسات الألسنية ، لا يضارعه الا مؤلفات ابن جني
ونظرات الجاحظ ، ولم يسبق اليه في منهجه سابق .

* * *

هذا هو جلال الدين السيوطي صاحب القلم الفيّاض الذي يقول فيه تلميذه
الداوودي : « وعانيت الشيخ وقد كتب في يوم واحد ثلاث كرايس تحريراً
وتأليفاً ، وكان مع ذلك يُملّي الحديث ، ويجيب عن المتعارض بأجوبة حسنة . . »
ولا يسعنا في آخر المطاف الا أن نحني رؤوسنا إجلالاً للسيوطي ذلك العبقرى
المبدع ، والعالم العربي المسلم الذي نادراً ما تجود بمثله العصور . .

دمشق : عبد اللطيف ارناؤوط

□ مراجع البحث :

- ١ - كشف الظنون لعاجي خليفة .
- ٢ - المجددون في الاسلام - عبد المتعال الصعدي .
- ٣ - حسن المعاصرة في اخبار مصر والقاهرة للسيوطي .
- ٤ - جلال الدين السيوطي منهجه وآراؤه الفكرية محمد جلال أبو الفتوح .
- ٥ - العافظ جلال الدين السيوطي - عبد العقيق فرغلي القرني .
- ٦ - معجم الادباء - لياقوت الحموي .

* * *